

الدوافع النفسية للإلحاد

في دراسة بعنوان «النمط النفسي للملحد» والتي أجراها عالم النفس بنيامين هلامي على أعضاء «الإلحاد الأمريكي لتقدم الإلحاد» ظهر أن نصف من تبناوا الإلحاد قبل سن العشرين (وهم الأغلبية) فقدوا أحد والديهم قبل هذه السن وإن عددًا كبيرًا منهم عانى كثيرًا في طفولته وصباه، واستنتج من ذلك أن أية دراسة للملحدين ينبغي أن تنطلق من دراسة ظروف النشأة والتربية.

وبالفعل اهتم علماء النفس حديثًا بالأسباب النفسية والشخصية والاجتماعية وراء تبني الإلحاد وحرصت هذه الدراسات بقناعة علمية بأن هذه العوامل تقف في مقدمة أسباب هذه الظاهرة ومن ثم فإن ما يطرحه الملاحظة كأسباب معرفية موضوعية (علمية ومنطقية) لإلحادهم ما هي - في معظم الأحيان - إلقاء تختفي وراءه العوامل النفسية والشخصية والاجتماعية، وسنعرض فيما يلي أهم العوامل النفسية وراء هذه الظاهرة:

أولاً: منظور التقصير الأبوي

بالرغم من أن عالم النفس الأمريكي (بول فيتز Paul Vitz) هو الذي قدم المفهوم بشكل متكامل في نهاية تسعينيات القرن العشرين، فإن معظم العلوم الإنسانية (علم النفس - التحليل النفسي - الفلسفة - علم الاجتماع - الأنثروبولوجيا) فقد أشارت قبلُ إلى أهمية دور العنصر الأبوي في تبني الأبناء للإلحاد.

كما يخبرنا فرويد بـ «أن التحليل النفسي يؤكد كل يوم أن الفتيان يفقدون إيمانهم الديني بمجرد أن تنفصم عرى السلطة الأبوية» بل إن فرويد نفسه كان أحد نماذج هذا العامل النفسي ويتبنى هذا المفهوم أن الإنسان يعتبر

الإله النموذج المطلق للقوة والسلطة كما يرى في أبيه التجسيد البشري لهذا النموذج، ومن ثم فمن يفقدون الأب (وفاة أو هجر للأسرة) وهؤلاء الذين لديهم آباء ضعفاء (جبناء) أو أساءوا معاملتهم (بدنيًا - نفسيًا - جنسيًا) يعانون صعوبات في تبني الإيمان بإله. (ولا شك أن من يجد بديلًا مناسبًا عن الأب «أستاذ - جد - صديق أكبر»... يكون أحسن حالًا).

ويذكر بول فيتز أن سير أنتوني فلو - الذي ظل راعيًا للإلحاد في الغرب طوال النصف الثاني من القرن العشرين، ثم أعلن إيمانه بالإله بعد أن تجاوز الثمانين من عمره - قد شوهد بعد أن أفرط في شرب الخمر، راقدًا على الأرض ويصرخ مرارًا «إني أكره أبي ... إني أكره أبي».

ثانيًا: نظرية الارتباط (التعلق)

في أثناء عمل بول فيتز في نظريته عن التقصير الأبوي في ختام القرن العشرين، كان هناك فريق آخر يصيغ «نظرية / فرضية الارتباط (التعلق)» ... وخرج بنظرية نفسية مهمة تتبنى أن طبيعة الرابطة بين الطفل وأمه (الرمز الأمومي Mother Figure) تمثل النموذج الذي ستكون عليه العلاقة بين هذا الشخص في المستقبل وبين الآخرين ويمتد هذا النموذج حتى يؤثر في العلاقة بالإله.

وقد طرح هذه النظرية عالم وطبيب النفس الإنجليزي (جون بوالبي John Bowlby) ثم قام بتعميمها، وتقدم المزيد من الأدلة عليها تلميذته عالمة النفس الأمريكية «ماري أنويرث» المهتمة بعلم نفس التربية.

وبعد دور الرابطة مع الأم تأتي في الأهمية رابطة الأسرة ورجال الدين.

وقد أظهرت الدراسات أن الارتباط بالأب (منظور التقصير الأبوي) يكون أكثر تأثيرًا في العلاقة بالإله عن باقي أنواع الارتباط حتى مع الأم.

- اختلال غياب نموذج الأم:

ترمز الأم بالنسبة لطفلها إلى نقاء الإله ورحمته وعنايته، وقد أظهرت الدراسات النفسية لسير كبار الملاحدة أن علاقة الكثيرين منهم بأمهاتهم كانت مضطربة في أثناء فترة الطفولة، ويبلغ تأثير هذا الاضطراب أقصى مداه في الفترة العمرية ١: ٣ سنوات وقد تمتد لسنوات قليلة بعد ذلك؛ لذلك غالبًا لا يذكر الشخص طبيعة علاقته بأمه لكنها تترك في نفسه آثارها العميقة التي لا تنمحي وقد ابتكرت «د. ماري أنويرث» اختبارًا يقيس نوع الارتباط بين الطفل وأمه، وقد قسمت هذا الارتباط إلى أربعة أنواع:

١- الارتباط الآمن:

تكون الرابطة بين الابن وأمه قوية مستقرة ويسودها الدفء والحنان، وهذا الارتباط هو الأكثر شيوعًا (حوالي) ٦٥٪.

٢- الارتباط غير الآمن (ارتباط التحاشي):

حيث تكون علاقة الطفل بأمه غير وثيقة، وهؤلاء الأطفال يكونون انطوائيين ولا يرغبون في تكوين علاقات مع الآخرين خوفًا من انفصالها، كما يعتبرون التجارب العاطفية غير مهمة ويتهربون منها، ويمثل هؤلاء حوالي ٢٠٪ من الأشخاص.

٣- الارتباط المتناقض (المتأرجح):

تتأرجح العلاقة بين الطفل وأمه في هذا النوع من الارتباط وهؤلاء يكونون متوترين عن إقامة العلاقات لكن لا يتهربون منها وأحيانًا يبحثون عنها بعصبية، ويحب هؤلاء أن يكونوا محور الاهتمام ويمثل هؤلاء قرابة ١٥٪ من علاقات الأمهات بأبنائهن.

٤- الارتباط المضطرب: Disorganised Attachment

حيث تفسد العلاقة وتضطرب بين الأم وطفلها يكونون انطوائيين مرتبكين ولا يطمئنون انفعاليًا وسلوكيًا في علاقاتهم مع الآخرين وتشكل نسبة هؤلاء حوالي ٥٪، ولا شك أن المعدلات السابقة هي متوسطات تختلف من مجتمع لآخر.

وبناء على هذا التقسيم، تعرض تأثير الارتباط بالأم من خلال جانبين متقابلين: العلاقة بين الارتباط والتدين وعلاقة الارتباط والإلحاد:

- الارتباط والتدين:

يعتمد قبول الشخص للعلاقة مع الإله نمط الارتباط بينه وبين أمه والذي استقر في نفسه في طفولته ويتبع ذلك إحدى فرضيتين:

١ - الفرضية التوافقية:

تبنى هذه الفرضية أن هناك «توافقًا» بين نمط الارتباط مع الأم وبين الارتباط بالإله فأصحاب الارتباط الآمن يكونون عادة علاقات وثيقة مع الإله، بينما يجد أصحاب الارتباط غير الآمن صعوبات في إقامة علاقة مع الإله.

٢ - الفرضية التعويضية:

في هذه الفرضية يكون الأشخاص من ذوي الارتباط غير الآمن أكثر ميلاً للارتباط بالإله كنوع من «التعويض» للحصول على الأمان الذي يفقدونه في علاقاتهم بأمهاتهم في صغرهم وتفسر هذه الفرضية التحول المفاجئ في موقف بعض الملاحدة إلى الإيمان.

أي هاتين الفرضيتين المتناقضتين صحيحة؟

يبدو أن كليهما صحيحتان فقد ظهرت العديد من الدراسات على المتدينين أن منهم من يصل إلى الإيمان بالآلية التوافقية ومنهم من يصل

بالآلية التعويضية ويعتمد ذلك على درجة تدين الأسرة.

فإذا كان تدين الأسرة مرتفعاً أعطى ذلك فرصة لأصحاب الارتباط الآمن ليدعموا علاقتهم بالإله، أما إذا كان التدين منخفضاً مال أصحاب الارتباط الآمن إلى عدم الإيمان (توافق) ومال أصحاب الارتباط غير الآمن إلى الإيمان (تعويض).

وأظهرت الدراسات أيضاً أن أصحاب الارتباط الآمن ينظرون للإله باعتباره محباً قريباً متسامحاً، ويشعرون دائماً أن الإله يراهم كما يكون إيمانهم أعمق وأكثر استقراراً وإشباعاً لاحتياجات الإنسان النفسية؛ لذلك يكون هؤلاء أقل عرضة للتوتر والاكتئاب والأمراض النفسية والجسدية ويكونون أكثر رضاء وانسجاماً مع الحياة. وكما يكون هؤلاء على علاقة طيبة ومستقرة بالألم وبالإله فإنهم يكونون أكثر تقبلاً للآخر من الديانات المختلفة، ويكونون أكثر جرأة في الإقبال على دراسة الديانات المقارنة كما يكونون أقل قلقاً على تدينهم ومستقبلهم.

وفي المقابل يكون تدين أصحاب الارتباط غير الآمن غير مستقر وقابل للارتداد، كما يكون أقوى انفعالياً (إيجابياً وسلبيًا)؛ لذلك يخرج من هؤلاء المتطرفون والتكفيريون والإرهابيون.

- الارتباط والإلحاد:

تسعى نظرية الارتباط (مثل نظرية التقصير الأبوي) لتوقع أي الأشخاص يمكن أن يتبنى الإيمان وأيهم يمكن أن يتبنى الإلحاد، وفي إطار هذه النظرية نلاحظ ما يلي بخصوص الملاحظة:

يكون الملحد عادة من ذوي الارتباط غير الآمن بأمهاتهم، وإذا تحول بعض هؤلاء إلى الإيمان يكون تحولهم مفاجئاً وغير مستقر (ربما يرتدون إلى الإلحاد مرة أخرى (كما يكون تدينهم متشدداً).

قد تستنتج في ضوء النظرية أن الملاحظة من ذوي الارتباط الآمن المستقرين نفسياً ينبغي أن يظلوا ملاحدة، ولكن مع تأمل أعمق للنظرية نجد أن هؤلاء يكونون مرتبطين بوالدين محبين (خاصة الأب الذي يرمز للإله) وهذا الحب إن لم يدفعهم لتقبل الآخر من المتدينين.

إذا نظرنا إلى الديانات المختلفة واعتبرنا الإلحاد أحدها، نجد أن من تروا كملاحدة يكونون أكثر استعداداً لمفارقة دينهم من أصحاب الديانات الأخرى ويعبر عن ذلك بأن الإلحاد يتميز بأدنى معدل للاحتفاظ بأتباعه **Lowest Retention Rate** (٣٠٪) بينما تبلغ النسبة في الهندوس ٨٤٪ وفي المسلمين ٧٦٪ والكاثوليك ٦٨٪ وفي البوذيين ٤٩٪.

ولا شك أن هذه النسب تختلف من مجتمع لآخر، كما تتوقف على عدة عوامل، مثل طبيعة المجتمع والتماسك الاجتماعي والتماسك بين أفراد الديانة ونضيف هنا نوع الارتباط في الأسرة (الارتباط آمن أو غير آمن) وفي العادة تكون الأسرة الملحدة غير مستقرة.

وإذا كان اختلال نموذج الأم من الأسباب القوية وراء تبني الإلحاد فإن الإنسان إذا وجد تعويضاً مناسباً عن أمه قل تأثير هذا السبب ومثال ذلك «ك س لويس» C.S.Lewis الذي صار عالم اللاهوت الأشهر في القرن العشرين لقد فقد أمه بمرض السرطان في طفولته لكن عوضه الله عنها بأم بديلة (جان مور Jane Moore) ظل يدعوها أمي لمدة ثلاثين عاماً حتى ماتت، لذلك لم يكن صعباً على لويس أن يترك إلحاده المبكر ويتبنى المسيحية الإنجيلية بحماس حتى اعتبره البعض قديساً.

والمحصلة أن مع اختلاف العوامل التي تضعف العلاقة بالوالدين (كليهما أو أحدهما) فإن هؤلاء الصغار يكونون أكثر استعداداً للإلحاد عندما يكبرون.

والآن جاء دور الاستشهاد بكبار الملاحدة ممن تأثروا بمفهوم اختلال /

غياب نموذج الأم:

- كبار الملاحدة الذين تأثروا بغياب الأم:

- آرثر شوينهور:

هجرته أمه وأهملته - إذ كان حملاً غير مرغوب فيه - وكان دائماً يلوم أمه أنها كانت السبب في انتحار والده عندما كان في السابعة عشرة من عمره.

- جل جونستون:

كانت أمها التي هجرها أبوها تحتقرها واكتشفت أن والديها لم يتزوجا، وكانت أمها تصفها بـ «ابنة الزنا Bastard» وكانت هي تصف أمها بـ «البغي الفاجرة Whore».

- برتداند رسل:

فقد أمه في سن حرجة (سنتين) حتى كان لا يكاد يذكرها.

- جان بول سارتر:

تزوجت أم سارتر بعد وفاة أبيه من رجل لفظه، كذلك أهملته أمه وتركته لجديه اللذين أهملاه أيضاً.

- فولتير:

كانت أمه كثيرة الغياب وأهملته تماماً، وكان فولتير يعدها عاهرة.

- فريديريخ نيتشه:

كان يعتبر أمه والنساء جميعاً كائنات متدنية، فالرجال للحرب والصراع، والنساء للترفيه والإمتاع وكان يعتبر النساء كالقطط أو الطيور وفي أحسن الأحوال كالبقر.

وأيضاً السفاحون:

لا يقف تأثير اختلال نموذج الأم - وما سبق من كراهية للنساء والإله - عند الإلحاد فحسب بل يمتد إلى مجالات أخرى أهمها القتل.

فهناك السفاحون الذين يرتكبون جرائم القتل المتعددة دون أن تهتز مشاعرهم وقد أصبح العشرات منهم واسعي الشهرة في الغرب وإن لم يكونوا معروفين لدينا.

من هؤلاء السفاحين من حبسته أمه في البدروم منذ بلغ سن العاشرة، وكانت تعتبر أنه يمثل تهديدًا جنسيًا لأخته.

ومنهم من كانت أمه داعرة تحضر زبائنها للمنزل وعندها تجبر ابنها أن يرتدي ملابس البنات.

ومنهم من كانت أمه الداعرة تعامله بقسوة وكانت تجبره على الاستحمام معها، وهددته بحجزه في مستشفى الأمراض العقلية.

ومنهم من ولد في بيت الأمهات غير المتزوجات وقد استعاده جده ورباه كابنه حتى ظن أنه أخ لأمه.

ومنهم من كانت أمه بغية وعرضته للتبني وكانت أمه الجديدة موسوسة للغاية حتى سعت لحمايته بشكل غير طبيعي فكانت توبخه وتعاقبه بشدة.

ومن هؤلاء الأطباء الذين يحترفون إجهاض الحوامل، وكان الكثيرون منهم مشهورين بكراهيتهم الشديدة للنساء.

ولا شك أن معظم هؤلاء يجمعون بين الإجرام وبين الإلحاد في صورته العملية.

ب - الاختلال الأسري:

لاحظ عالم النفس بنيامين هلاهي أن الكثير من الحالات الملحدة يجتمع فيها التقصير الأبوي مع اختلال رمز الأم وجمع ملاحظاته حول هذا

الخلل الأسري المزدوج في عدد من النقاط:

- ١ - كلما تضاءل اهتمام الوالدين بالدين كلما ازداد تمرد أبنائهما عليه.
- ٢ - إذا كان الوالدان مختلفين في الدين وترتب على ذلك خلافات في الأسرة زاد احتمال ارتداد الأبناء عن الدين.
- ٣ - من ارتدوا عن الدين بالرغم من نشأتهم في أسرة متدينة عادة ما تكون علاقتهم بالأسرة غير طيبة، ومن المهم أن نلاحظ أن علاقة الوالدين بالطفل تمارس تأثيرها في مراحل سنية مختلفة، فتأثير الارتباط السيئ بالأُم يكون في الفترة من ١ : ٣ سنوات وهي سن تعلق الطفل الشديد بأمه، أما المتفوقون بعقده أوديب فيرون أنها تتشكل في الفترة من ٣ : ٥ سنوات، ويظهر تأثير التقصير الأبوي بعد سن الخمس سنوات ويمتد حتى نهاية فترة المراهقة.

- ملاحظة عانوا من الاختلال الأسري:

ويظهر استقرار سير كبار الملحنين العديد من الأمثلة لتأثير الاختلال الأسري:

١ - ه.ج. ويلز:

لم يكن والداه على وفاق وكان ينامان في غرفتين منفصلتين، وتمنيا الإلحاد بعد وفاة أخته.

٢ - ألبرت إليس:

كانت أمه تهجره معظم الوقت، ونادرًا ما كانت أسرته تزوره عندما تم حجزه في المستشفى في سن الخامسة، وهجر والده العائلة وهو في سن المراهقة.

٣ - برتراند رسل:

ماتت أمه وهو في الثانية، ومات أبوه وهو في الرابعة، ثم جده الذي تولى تربيته وهو في السادسة وكان مصدر الحنان له، وبعد ذلك مريبات توفيت أحبهن إليه وهو في سن الحادية عشرة.

٤ - فولتير:

ماتت أمه وهو في سن السابعة وهجره أبوه، وكان يعلن - وأحياناً يباهي - بأنه الابن غير الشرعي للشاعر الشهير روشبرن.

٥ - جين دالمبيرت:

كان ابناً غير شرعي، وتُرك بعد ولادته في سلة أمام كنيسة القرية.

٦ - بارون دو هولباخ:

هجره والده ورباه عمه الذي لم يكن يشعر تجاهه بالحب.

وكما ذكرنا في اختلال نموذج الأم فإن للاختلال الأسري تأثير أكبر على الانحراف وتبني الإجرام وعادة ما يكون ذلك مصحوباً بالإلحاد المعلن أو الإلحاد العملي.

فمن هؤلاء المجرمين والسفاحين من ماتت أمها وهي في الرابعة، أما أباه فقد أرسلها لتعيش مع جديها، وعرض شقيقتها الكبرى للتبني، ولما تزوج استعاد ابنته لكنه وزوجته كانا يسيئان معاملتها للغاية، وكانا يعذبانها ويحرقانها بالسجائر.

ومن هؤلاء من فارقت أمه وأبوه، وعند خروجه من الخدمة العسكرية تركاه ليحیی في حزن.

ومنهم من كان يصحب أمه في مغامراتها الجنسية، وكان أبوه ضعيفاً

للغاية وغائبًا باستمرار.

ومنهم من ماتت أمها في سن الثالثة، وكانت زوجة أبيها تكرهها، وكان أبوها صارمًا يقطع رقاب الحمام الذي تحبه من أجل أن يؤدبها.

والعديد من هؤلاء السفاحين هجره أبوه وكانوا يعيشون طفولة بائسة.

وقد أثبتت الدراسات أن الحضارات التي تولي مؤسسة الأسرة دورًا مهمًا وتحافظ عليها تنتج أفرادًا على علاقة طيبة بالإله، وإذا تفتت مؤسسة الأسرة هدد ذلك بشدة منظمتي الإيمان والأخلاق في نفوس الأبناء، كانت معظم المجتمعات الإنسانية في الماضي تسعى لإدخال الطمأنينة على قلب الإنسان بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة، ولعل الأسرة هي أهم المؤسسات التي طورها الإنسان ليدخل الطمأنينة على قلبه.

أما المجتمعات الحديثة - خصوصًا المجتمع الأمريكي - فقد جعلت الإنتاجية والحركية هدفها، ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركي؛ فالقلق يولد نزعة إمبريالية في الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه، فيحقق شيئًا من الاتزان والطمأنينة، إن المجتمع الأمريكي هو مجتمع القلق يتبنى الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله في سوق العمالة في مرحلة مبكرة للغاية، وفي سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه، لقد جعل التآكل الكامل للأسرة الفرد يعيش منعزلًا ولا يشعر بأي اطمئنان، بل يُترك وحيدًا أمام آلاف الاختبارات والإعلانات حتى يلتهمه الإعلام الكفاء التهامًا، لا يجد أية مرجعية تكون موضع ثقته، وتصدر شرعيته، وتضيف معنى على وجوده، وتساعد على اتخاذ القرار لقد «فقد الإنسان الرأفة في عالم بلا قلب كما يقول عالم الاجتماع الأمريكي «كريستوفر لاشي» في وصفه لتآكل نظام الأسرة.

ج - الأب / الأم البطل الملحد:

درسنا في النمطين السابقين تأثير العلاقة السيئة بالأب والأم على أبنائهما، وفي هذا النمط المقابل نلتقي بتأثير العلاقة شديدة الارتباط والتعلق على تبني الأبناء للإلحاد أحد الوالدين.

ولعل من أشهر الأمثلة على تبني الأطفال المفكر الإنجليزي الكبير «جون ستيوارت مل» والفرنسية «سيمون بوفوار»، وترجع أهمية هذين المفكرين إلى أنهما قد صرحا بأنهما قد تأثرا بشدة في إلحادهما بوالديهما. كان جيمس والد جون ستيوارت مل فيلسوف ورجل اقتصاد كبير، وكان شديد الاهتمام بجون الذي كان شديد التعلق بوالده الذي تولى تعليمه بنفسه في المنزل، وكانت النتيجة أن تبني جون إلحاد والده، وفي مرحلة متقدمة من حياته كان مل يشكو أن تعلقه بوالده الملحد لم يجعل الإيمان اختياراً مطروحاً بالنسبة له.

كذلك كانت سيمون دي بوفوار شديدة التعلق بوالدها غير المؤمن، وكانت تقول: إن شك أبي هو الطريق لي، وأراحني من الخوض بمفردي في مغامرة خطيرة - تقصد الإلحاد -، وفي مرحلة لاحقة وجدت سيمون في جان بول سارتر بطلاً آخر، وكانت تصفه قائلة: «كانت ثقتي به كاملة وكنت أجد فيه الأمان المطلق الذي كنت أجده في والدي وفي الإله.

كذلك يحدثنا علماء النفس عن «فرضية ترتيب الميلاد» التي تتبنى أن ترتيب الابن في أسرته له دور كبير في تحديد ما تبناه من أفكار، فالأخ الأكبر يكون أكثر انقياداً للمفاهيم والعرف والتقاليد السائدة في العائلة، وفي المقابل يكون الإخوة الأصغر عادة منفتحين على الأفكار الجذرية الجديدة التي تطمس المفاهيم السائدة؛ سواء كانت هذه الأفكار الجديدة أصلية ومهمة أو كانت سخيفة وسطحية.

د - اختلال نموذج رجال الدين:

يشير بول فيتز إلى أن رجال الدين يحتلون في المسيحية - خصوصًا لدى المتدينين في الغرب - منزلة الآباء، وبالتالي يمكن أن نשמلمهم في نظرية الارتباط.

لذلك فإن أي انحراف يشين رجال الدين - فضيحة، كسل وتراخ - كان يعتبر عاملاً مهمًا في الموجة الإلحادية في نهاية العصور الوسطى.

ولا يقف تأثير هذا العامل عند مفهوم الارتباط النفسي فقط، بل أن رجال الدين يرمزون للدين نفسه، ومن ثم فإن انحرافاتهم تؤخذ على الدين وتكون سببًا منطقيًا في إلحاد أتباعهم.

وعامل ثالث وراء تبني الإلحاد يحسب على رجال الدين في الغرب: هو حرصهم على كسب الناس وعدم إغضابهم حتى يضمنوا تردهم على كنائسهم، وقد دفعهم ذلك إلى عدم مراجعة العصاة في معاصيهم فتكون النتيجة اجتراء هؤلاء مع المعاصي وأقصاها الإلحاد.

وقد بلغت كراهية البعض لرجال الدين بسبب إساءاتهم الشديدة لهم حدًا دفع القس «جين ميسليه» لأن يكتب سرًا قائلًا: «أتمنى أن يشنق كل حكام العالم وكل المفاهيم الكنسية بأسماء القسيسين» لقد كانت كراهية الكنيسة ورجالها حاجزًا منيعًا ضد الإيمان الحقيقي حتى أصبح بحق أبا روحياً لكل الملاحدة الجدد!!

وبالرغم من إيمان عظيم الهند «غاندي» بالإله فقد رفض اعتناق المسيحية؛ لأنه لم يقابل إنسانًا واحدًا على أخلاق المسيح. وفي المقابل فإن الملحد المتحمس «مالكوم موجيريدج Malcoim Mogeridge» تبنى المسيحية لأنه رأى في الأم تريزا مثالًا مجسدًا للمسيح.

هكذا نرى كيف يصبح سلوك رجال الدين عامل جذب أو نفور من الدين؛ لِمَا يمثله هؤلاء بالنسبة لمريديهم، وي طرح عالم النفس الأمريكي بول فيتز تجربة شخصية مؤلمة لصديق له مع أحد رجال الدين. لقد أخطأ صديقه في أحد طقوس الكنيسة، فكان أن عنفه القس واحتقره وأذله؛ مما ترك في نفسه جرحًا لم يندمل دفع صديقه ثمنه إلحادًا بالإله.

- سقوط الإمبراطورية الرومانية:

وينقلنا «بول فيتز» إلى تأمل أفكار المؤرخ البريطاني الكبير «إدوارد جيبون Edward Gibbon» صاحب السفر الشهير «سقوط الإمبراطورية الرومانية» فنجد أنه يرجع سقوط الإمبراطورية إلى سلوك الكنيسة، والسؤال هنا: هل كان هذا التفسير موضوعيًا خالصًا أم كانت وراءه خلفية جيبون النفسية؟ لقد تناول السير التي كتبت عن جيبون تحليلًا نفسيًا لشخصيته، جاءني أصداءها أن المؤرخ الكبير كان في صغره صاحب توجه ديني، وما أن وصل إلى أكسفورد حتى تبني المذهب الكاثوليكي الروماني أصاب ذلك والده بالإحباط، حيث كان العرف والتقاليد في المجتمع الإنجليزي البروتستانتى يزدريان هذا المذهب، وفي محاولة لإنقاذ جيبون من الازدراء المجتمعي أرسله والده ليحيا مع أسرة وزير بروتستانتى التي كانت تعيش في سويسرا لعدة سنوات، وبعد عام من وصوله إلى سويسرا وتحت تأثير ضغوط والده ومضيفه الوزير عاد جيبون إلى المذهب البروتستانتى، وقد ترك هذا التحول في نفسه صراعًا عميقًا لم يهدأ، بسبب ذلك الموقف تشكل جيبون في قيم ومفاهيم مفكري القرن الثامن عشر - كوالده وصديقه - كما أصبح ناقدًا للكنيسة وللمسيحية.

هل كان هجوم جيبون على الكنيسة وتحميلها مسئولية سقوط الإمبراطورية الرومانية نوعًا من الثأر لما أصابه من معاناة نفسية؟

أم كان رد فعل ضد حماس عائلته - وحماسه السابق - للدين؟

- التحرش الجنسي بريتشارد دوكنز:

إذا انتقلنا إلى الملاحظة الجدد قابلنا تصريحًا لكبيرهم ريتشاد دوكنز بأنه في سن الحادية عشرة تعرض لتحرش جنسي من أحد مدرسيه في مدرسته الدينية، وقد صرح دوكنز بنفسه بذلك - ووصف التفاصيل - في حوار مع مجلة التايمز في سبتمبر ٢٠١٣، والعجيب أن دوكنز رفض أن يدين هذا التصرف - كما يقول للمجلة - فهل كان لهذا الموقف الذي لم يمنح من ذاكرته بعد عشرات السنين تأثيرًا في تبنيه الإلحاد، ومهما اختلفت التفسيرات فإن الرسالة واحدة وهي دور «الارتباط» بالمؤسسة الدينية في تبنى الإلحاد، إذا أصابت هذه المؤسسة ورجالها الشخص بجروح نفسية.

ثالثًا: إجهاض الإله

بعد استعراض دور علاقة الابن بأبيه وأمه في تبنى الإلحاد والتي يتشكل تأثيرها في الصغر، نطرح مثالًا للعوامل النفسية التي يتشكل تأثيرها في مرحلة لاحقة من العمر.

يسبب الإجهاض لكثير من النساء على المستوى النفسي ما يعرف بصدمة ما بعد الإجهاض «Post-Abortive Trauma» ولا يقف تأثير هذه الصدمة على المرأة وحدها، بل يمتد إلى زوجها وأبنائها ووالديها حتى يمكن القول: إن الإجهاض قد يدمر العائلة نفسيًا وقد يمتد هذا التأثير ليدمر العلاقة بالإله.

وترجع هذه الآثار إلى شعور أفراد الأسرة بالعجز عن تدعيم العلاقة بينهم بمزيد من الذرية، ويعقب ذلك اهتزاز النظرة للإله - على المستوى الواعي أو غير الواعي - خاصة أتباع الديانات التي تعتبر أن البشر - الذين أجهض أحدهم - قد خلقوا على صورة الإله لذلك إذا لم يتم علاج أفراد الأسرة

الحساسين لهذا التأثير علاجًا نفسيًا فإن إجهاض الحمل يتبعه إجهاض الإله.

- المرأة / الأم:

تشعر المرأة المجهضة بالذنب وبالعزلة والحزن الشديد وبالغضب والاكْتئاب والخزي، وكثيرًا ما تنتابها وساوس قهرية مختلفة، وقد تبدي المرأة سلوكيات متطرفة مثل الانخراط الشديد (أو الامتناع) في الطعام، أو إدمان الكحوليات والمخدرات، وربما يصل الأمر إلى ضعف القدرة على الارتباط النفسي بأطفال في المستقبل وإلى فساد علاقتهن بأزواجهن. وفي جانب آخر تشعر المرأة بالغرابة عن المجتمع المتدين ثم عن الإله ويصل الأمر إلى الغضب من الإله ولا تستطيع الأم التسامح فيه، وكمهرب من هذه المعاناة قد تنكر المرأة الوجود الإلهي (الإلحاد).

- الرجل / الأب:

كثيرًا ما يصاب آباء الحمل المجهض بالشعور بالذنب والندم والحزن والعجز، وكثيرًا ما يعانون كواييس تدور حول من فقدوهم.

وقد ينفث الرجل عن الشعور بالعجز وفقدان الثقة بالنفس بسلوك عدواني تجاه النساء، وقد يهجرون زوجاتهم كآلية للهروب، وكثيرًا ما يعاقبون أنفسهم بالإساءة إليها بإدمان المخدرات والخمور، وييلام الجسد بثقب الجلد دون مبرر أو بحجة عمل وشم مثلاً، وكمهرب من كل هذه المعاناة قد يتبنى الرجل الإلحاد.

- الأبناء:

بالإضافة إلى ما يعانيه إخوة الحمل المجهض من سوء معاملة الأم بسبب ما تعانيه من مشكلات نفسية ذكرناها آنفًا فإنهم قد يعانون الإحباط واليأس

والخوف من العالم.

ويمتزج ذلك الشعور بالغضب وبالذنب، نتيجة لتساؤل لا واعٍ لشعوره: لماذا أنا عشت بينما أخي قد مات؟ وربما يعتبرون أنهم يعيشون على حساب أخيه المجهض باعتبار أن والديهم عاجزان عن رعاية طفل آخر معهم (إما أنا أو هو)، وأحياناً يصحب ذلك خوف باطني كاسح مع الأم (ربما أكون أنا من تضحى به المرة القادمة) ولا شك أن ذلك يؤدي إلى الغضب من الإله. وتعرف هذه الأعراض بـ «متلازمة البقاء Survivor Syndrome» وقد يكون الإلحاد هو المخرج من هذه المعاناة.

- الجد والجدة:

كثيراً ما يعاني الجد والجدة من أعراض ما بعد الإجهاض. وأهم ما يشكون منه هو الشعور بالاكئاب والغضب والمرارة والامتعاض تجاه ما حدث، وكثيراً ما يعجزان عن مسامحة ابنتهما أو زوجة ابنهما، وينعكس ذلك على معاملتهما لهما.

مما سبق نرى أن الإجهاض يمثل مأساة أسرية اجتماعية وقد سمعنا بالمزيد من «الإجهاض حسب الطلب»، فإذا تم انفصال عرى العلاقة بين أفراد الأسرة يتم تفكك المجتمع، وبذلك يكون الإلحاد هو الابن الشرعي لهذا الدمار.

وهكذا فإن الإلحاد مرض نفسي، وهو آفة تظهر عبر العصور وتستحق منا المكافحة تماماً كما نعمل عندما تصيب إحدى الآفات المزروعات الخضراء النامية في حقولنا، فما بالكم في تلك الآفة التي تريد تدمير عقول أبنائنا!!

- لماذا ظهر الإلحاد الآن؟

عندما نتأمل دور الدوافع النفسية وراء الإلحاد يقفز في الخاطر سؤال

بديهي مهم، وهو: لماذا ظهر الإلحاد الآن؟

إن هذه الدوافع النفسية (التقصير الأبوي - الارتباط - الإجهاض) والعوامل الشخصية وأيضاً العوامل البيولوجية (كالتوحد (AUTISM) موجودة منذ نشأة الإنسان - في الأغلب - فلماذا لم يظهر الإلحاد إلا في القرن الثامن عشر في أوروبا؟!

للإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن هذه الدوافع النفسية ليست التفسير الكامل للإلحاد وهي غير كافية لإنكار الوجود الإلهي، بل هي عوامل تمهد وتعد النفس البشرية لهذا الإنكار، وعلى هذه الخلفية الذاتية (الدوافع النفسية والشخصية) تمارس الدوافع الاجتماعية والمعرفية الموضوعية دورها.